الاوقاف في عهد الفراعنة

قد يظهر من اختلاف العلماء في اصل الاوقاف او الاحباس انها من الاوضاع الحديثة ولكن الباحثين في الآثار المصرية وجدوا ان الوقف اي حبس بعض الاملاك على المعابد قديم جدًّا في هذا القطر . فقد وُجد فيهِ درْج من البردي كتب منذ ثلاثة آلاف وستة عُدّدت فيهِ اوقاف الهياكل المصرية في عهد الملك رعمسيس الثالث . وجاء فيهِ ان المعابد كانت تمتلك ١٠٧٠٠٠ عبد او نحو اثنين في المئة من سكان القطر المصري كلهم في ذلك الحين ونحو ٧٥٠٠٠٠٠ فدان من الاطيان الزراعية او نحو سبع الاطيان كلها ونحو ٥٠٠٠٠٠ راس من البقر و ٨٨ مركبًا و ٥٣ مصنعًا و ١٦٠ مدينة

وكانت المعبودات المصرية الكبيرة حينئذٍ ثلاثة امون في طيبة امام لتصر ورا في اون (هليو بوليس او المطرية) وفتاح في منف حيث خرائب ميت رهينة . وكانت معابد امون اكبر المعابد كلها وكهنتهُ اغنى الكهنة . وكان لهُ معابد اخرى غير معابد طيبة متفرقة في طول البلاد وعرضها بل كان لهُ ايضًا معبد في بلاد الشام وآخر في بلاد النوبة . وبلغت مساحة اطيانهِ ٥٨٣٠٠٠ فدان وبلغ عدد عبيدهِ ٨٦٥٠٠ وعدد مواشيهِ ٤٢١٠٠٠ وعدد بساتينهِ وحراجهِ ٤٣٣ وعدد مصانعهِ ٤٦ وعدد مراكبهِ ٨٣ . وكان لهُ ٩ مدن في بلاد الشام وبلاد كوش ولم يكن لغيرهِ مدن فيهما . اما في القطر المصري فكان اكثر المدن للمعبود را لانهُ كان لهُ فيهِ ١٠٣ مدن ولم يكن لامون فيهِ سوى ٥٦ مدينة

كهنة يمكون هذه الثروة الطائلة لا تقلُّ سطوتهم في البلاد عن سطوة الملك وقد كانوا كذلك حتى ان رئيسهم استبدَّ بالسلطة الدينية وقتًا ما في البلاد كلها وصار تنصيب الملوك وعزلهم في يدهِ ولذلك كان الملوك يترضونهم بالهدايا والاوقاف . وقد عدَّد الملك رعمسيس الثالث الهدايا التي اهداها الى المعبود امون في الدرْج المشار اليهِ آنفًا فقال

« فعلت العظائم ووهبت الهبات السنية للآلهة والاطلت جنوبًا وشمالاً بنيت ما تهدَّم من المعابد وانشأت هياكل جديدة وغرست لها البساتين وحفرت البحيرات ووقفت لها اوقافًا من القمح والشعير والخمر والبخور والاثمار والمواشي والطيور وبنيت معابد لرا لتقدَّم فيها التقادم يوميًّا » . وهو يشير هنا الى المعابد الصغيرة اما المعابد الكبيرة ومعبوداتها فاسهب في الكلام عمَّا قدمهُ لها فقد جاء في كلامهِ عمَّا قدَّمهُ للمعبود امون ما تعريبهُ « صنعت لك لوحًا من الفضة

المطرقة نزّلتهُ بالذهب وعليهِ تثالي من الذهب وصنعت ايضاً مائدة منزّلة بالذهب مرصعة بالحجارة الكريمة كؤوسها من الذهب تسكب فيها الخمر لتقدم لك كل صباح وصنعت لك ايضاً موائد كبيرة تُفش عليها اسم جلالتك العظيم وفيها صلواتي وصنعت لك اثاثاً اخرى من الفضة تفش عليها اسم جلالتك العظيم مع اوامر يشك

« وصنعت لك سفينة من الارز الذي في مملكتك طولها مئة وثلاثون ذراعاً وصفّحتها بالذهب الابريز الى حد الماء مثل فلك الشمس التي تطلع من المشرق فتجري الذين يرونها . واقمت في وسط السفينة هيكلاً من الذهب الابريز مرصعاً باثمن الحجارة الكريمة مثل قصر مشيد ولهُ قرون من الذهب من مقدمهِ الى مؤخرهِ معها رؤوس اصلال مشوّحة »

وصنع موازين لوزن التقدمات التي تقدّم لوا معبود هليو بوليس بلغ ما استعمل في صنعها مئتين واثني عشر رطلاً من الذهب واربع مئة وستين رطلاً من الفضة

وقال في مكان آخر عن هيكل امون في مدينة هبو « اني ملأت خزانتهُ بخيرات ارض مصر من الذهب والفضة وكل حجر كريم مئات الالوف وفاضت امراؤهُ بالقمح والشعير وحقولهُ بالقطعان حتى زاد عددها على رمل البحر . وجبيت الاموال لهُ من الجنوب والشمال فجاءت من بلاد النوبة و بلاد الشام وملأتهُ بالاسرى الذين اعطاني اياهم بين القسي الشمع والصفوف المؤلفة من عشرات الالوف . ولقد زدت التقادم المقدسة التي اهديتها اليهِ اضعافاً مضاعفةً من الخبز والخمر والاوزّ المسمّن والثيران والعجول والبقر والمها والغزلان التي ذبحت في دارهِ »

وكان للكهنة شأن رفيع من قديم الزمان فرئيس الكهنة في هيكل اون (عين شمس) كان يلقب بالنبي العظيم والحبر الاعظم وفي هيكل فتاح بمدينة منف كان يلقب برئيس الصناع العظيم وكان في كل هيكل حبران عظيمان وكلاهما من اشرف اشراف المملكة ولا ينحصر عملها في الامور الدينية بل كانا يتوليان ادارة الاوقاف الواسعة الخاصة بالهيكل وقيادة جيشهِ لانهُ كان للهياكل جنود تدافع عنها

وكان الفراعنة يتوسلون بكل وسيلة لبناء الهياكل ووقف الاموال الطائلة عليها فالملك ستي الاول بنى هياكل كثيرة ولما رأى ان نفقات البناء استنزفت اموال خزينتهِ وان الذهب الذي كان يستخرج من الجبال المجاورة للبحر الاحمر ولاسيما جبل زبارا قلّ بسبب مشقة الوصول اليهِ لقلة المياه في الطريق ذهبَ بنفسهِ الى هناك ليرى ما يمكن عملهُ لاستنباط الماء في طريق القوافل وكانت الطريق تبتدئ من فوق أدفو فسار من هناك مرحلتين في القفر

او نحو ٣٧ ميلاً فرأى محطة قديمة كانت القوافل تحط فيها رحالها في عهد الدولة الثامنة عشرة فامر ان تحفر بئر هناك فحفرت ووجد فيها ماء غزير فبنى هيكلاً صغيراً الى جانبها وخاناً لنزول القوافل - وقد وجد نشيد كانت السيارة تنشده شكراً له يقال فيه «ايتها الآلهة المقيمة في هذه البئر امنحيه الخلود لانهُ نهج لنا طريقاً نسير فيه بعد ان كان قد سُدَّ في وجهنا فصرنا نسير آمنين ونصل بسالمين وتسهلت الصعاب التي كانت تحول دوننا»

وجعل سنحي الاول اكل ما يخرج من مناجم الذهب وقفاً على الهيكل الذي بناهُ في ايدوس وهو ابدع الهياكل المصرية كلها واستنزل اللعنات على كل من يلغي عملهُ · ثم ايَّد ابنهُ رعمسيس الثاني ذلك · وما زالت اوقاف الهياكل تزيد وسطوة الكهنة تقوى حتى اضطرَّ رعمسيس الثالث ان يقاومها بالمترزقة فاتى بالمماليك من البلدان المجاورة ولا سيما من جهات الشام واسيا الصغرى وجزائر البحر ونظمهم في جيشهِ فقوي شأنهم رويداً رويداً كما قوي شأن المماليك في عهد ملوك العرب والترك · وكانت النتيجة ان المملكة ضعفت بتنازع السلطة بين الكهنة والمماليك واشرفت على البوار فان رعمسيس الثاني عشر ارسل رجلاً الى مدينة جبيل في ساحل لبنان ليأتي بالارز فيبني بهِ سفينة للمعبود امون فلم يستطع رئيس الهيكل ان يعطيهُ الاَّ قليلاً من الذهب والفضة ولكنهُ اعطاهُ تمثالاً صغيراً لامون المانح الحياة والصحة لكي يريهُ لصاحب جبيل فيحملهُ على اعطائهِ خشب الارز مجاناً واعطاهُ ايضاً كتاباً لنسو بنبدد صاحب الوجه البحري لكي يجيز لهُ المرور في بلادهِ فمرَّ وركب سفينة ربَّانها سوري وسار وليس معهُ غير ذكرى امجاد مصر السابقة لا سفن ولا جنود ولا اموال فان المال القليل الذي اخذهُ معهُ سُلب منهُ في الطريق · فجاء مدينة صور وسار منها الى مدينة جبيل وكان اسم صاحبها زكار بعل فلم يشأ ان يراهُ بل امرهُ بالانصراف عن مدينتهِ · الى هذا الحد من الضعة بلغ شأن مصر بعد رعمسيس الثالث بنحو خمسين سنة من فضل الكهنة والمماليك لكن كان في المدينة نبيٌّ حلَّت عليهِ الروح فنادى انهُ يجب ان نعامل هذا الرسول بالاكرام والاحترام واقنع صاحب جبيل باستقبالهِ فاستقبلهُ وهاك وصف هذه المقابلة من فم الرسول قال

«لما اصبح الصباح ارسل من احضرني اليهِ حين قُدِّمت التقدمات الدينية في الحصن الذي كان فيهِ على شاطئ البحر · فوجدتهُ جالساً في علِّيَّة وقد اسند ظهرهُ الى كوة وامواج بحر الشام العظيم تتنفَّس وراءهُ على اسفل الحصن · فقلت لهُ السلام من امون · فقال لي كم مضى عليك منذ اتيت من منزل امون · فقلت خمسة اشهر و يوم فقال ان كنت صادقاً فاين

الكتاب الذي اتيت به من امون اين الكتاب من رئيس كهنة امون . فقلت اني اعطيته لنسو بنبدد صاحب الوجه البحري . فاظهر الغيظ وقال لي اين السفينة التي انزلك فيها نسو بنبدد واين بحارتها السوريون . فقلت ان عند نسو بنبدد سفناً مصرية وبحارة مصريين ولكن ليس عنده سفن سورية وبحارة سوريون . فقال ان في مرفإي هذا عشرين سفينة لنسو بنبدد وفي صيداء عشرة آلاف سفينة لبركة ال ، لعله تاجر من تجار تنيس)

فصمتُ ولم احر جواباً ولما رأى مني ذلك قال لماذا اتيت الى هنا . فقلت اتيت لآخذ خشب ارز لبناء سفينة لامون را ملك الآلهة فان اباك اعطانا ارزاً وانت تفتدي به فقال نعم ان ابي فعل ذلك وانا افعل مثله اذا اعطيتني شيئاً فان رجالي قطعوا له خشب الارز ولكن الفرعون ارسل اليه ستة مراكب مشحونة بحاصلات مصر فافرغت شحنها في مخازنه فعليك ان تأتيني بشيء من ذلك . ثم امر بان يؤتى بسجل فيه اخبار ابيه و يقرأ امامي . فاذا فيه الف دين من الفضة (الدين قنطاران) ثم قال لي لو كانت هذه البلاد لصاحب مصر وشحن عبيده لما ارسل الينا فضة وذهباً وقال افعلوا حسب امر امون . وما اخذه من ابي لم يكن جزية مفروضة عليه . وانا لست خادمك ولا خادم الذي ارسلك . . . . فعلى م كلفوك هذه الاسفار الدنيئة . فقلت له اخطأت ان سفري ليس دنيئاً وهذا الجبل الذي تقول انه لك انما هو لامون ولا يخور ارزه الا لمصنع منه السفن لامون ولقد ابقيت هذا الاله العظيم تسعاً وعشرين يوماً في الانتظار منذ نزل في مرفإك ولا تستطيع ان تنكر ذلك وانت واقف تسأم على ارز لبنان مع امون رب لبنان . اما من حيث قولك ان الملوك السابقين ارسلوا فضة وذهباً فلو ارسلوا حياة وصحة لما ارسلوا فضة وذهباً ولما لم يرسلوا الى ابيك حياة وصحة ارسلوا اليه هذه العروض . ولا يخفى عليك ان امون را ملك الالهة هو رب الحياة والصحة وهو رب آبائك الذين قضوا عمرهم يقدمون له التقدمات وانت ايضاً عبد له فاذا قلت لامون اني افعل وفعلت حسب امره حييت وافلحت وجادت صحتك وصرت محبوباً في بلادك ولدى شعبك فلا تطمع بشيء ليس لك بل لامون را ملك الآلهة وهو الاسد ويجب ان له . قل لكاتبي يأتيني لكي ارسله الى نسو بنبدد والى تنتامون (زوجته) الحاكمين اللذين منحها امون شمال بلاده فيرسلان كل ما اكتب لهما عنه الى ان اعود الى الجنوب وارسل اليك بقية الطرائف التي تطلبها . هكذا قلت له » . ولهذا الرجل حديث طويل لا محل له هنا الآن ولكن ما تقدم كاف للدلالة على انه لما ضعف ملوك مصر وعجزوا عن ان يرغموا امراء فينيقية بجنودهم وبوارجهم صاروا يوهمونهم ايهاماً بالصور والتماثيل والاقوال الفارغة